﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ [الكهف: 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في تَكرارِ الإنْذارِ تَوْضيحٌ وتَأْكيدٌ لِلغَرضِ مِنْ سَوْقِ الآياتِ

جاءتْ هذه الآيةُ استكمالًا وتتمّةً لما بدأت به السّورة من بيان العِلَّة التي من أجلها نزل القرآن، بأنَّه ينذرُ الكافرين، ويبشِّر المؤمنين، أي الآية هي "تعليلٌ آخرُ لإنزالِ الكتاب على عبده، وقد جُعل تاليًا لقوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾"[1].

ولمّا كان الغالبُ على الإنسانِ مُخالفته للأوامر؛ لِما جُبل عليه من النَّقائصِ كان الإنذارُ أهمَّ فأعاده، وذكر فيه بعض المتعلَّق المحذوف من الآية التي قبلها تبكيتًا لليهود المُضِلّين لهؤلاء العرب ولمن قال مثلهم[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يجتمع الإيمان بالله تعالى ونسبة الولد إليه

خَصَّ الله تعالى بالإنذار في هذه الآية فرقةً من الكافرين، نسبوا إليه سُبحانه ما هو مُنَزَّهٌ عنه، فقال: ويُنذِرَ الكافِرينَ - الذينَ قالوا: اتَّخَذ اللّهُ لِنَفسِه ولَدًا - عَذابَه الشَّديدَ في العاجِلِ والآجِلِ، وهؤلاء ثلاث طوائف: الأولى: المشركون، الَّذين قالوا: الملائكة بنات الله، وهم المقصودون في الآية مُباشرة، والثّانية: اليهود، القائلون عزيز ابن الله، والثّالثة: النَّصارى، القائلون المسيح ابن الله، والأخيرتان تدخلان في عموم الإنذار؛ لاتِّحاد السَّبب[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

وجه عَطْفِ جُملة ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ﴾ على ما قبلها:

جاء النَّصُّ القُرآنيُّ بقوله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 250.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 7.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 147، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 470، والمراغي، تفسير المراغي: 15/ 115، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 251.

معطوفًا على قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾، من باب عَطْفِ الخاصِّ عَلى العامِّ؛ إذ جاء الإنذارُ الأوّلُ عامًّا في حقّ كلِّ من استحقَّ العذاب، وجاء الثّاني خاصًّا بمن أثبتَ للّه ولدًا[1]، وفي هذا تَنبيهٌ على أهَمِيّةِ الخاصِّ وخطورتِهِ، وأنّ أقبحَ أنواعِ الكفر والمعصية إثباتُ الولد للّه تعالى[2]، وهكذا القرآن الكريم إذا ذكرَ قضيّةً كليَّة عطفَ عليها بعضَ جزئيّاتها تنبيهًا على كونها أعظمَ جزئيّاتِ ذلك الكُلِّ[3].

فـــي عَــطْــفِ الــخــاصِّ عَـلى العامِّ تَنْبيهٌ على أَهَميةِ الخاصِّ وخُطورَتِهِ

وكذلك بالعطفِ اكتملَ المعنى بكلِّ وجوهه من قوله سُبحانه: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا﴾ إلى هُنا، فبقوله ﴿لِّيُنذِرَ﴾ الأولى عُرف بها المنذَر به، وبقوله ﴿وَيُنذِرَ﴾ الثانية عُرف به المنذَر، وكذلك بالمُقابلة مع الآية التي قبلها التي ذُكِرَتْ فيها البشارة، فقد ذُكر فيها الفريقُ المبشَّر والبِّشارة، وبذكر البشارةِ بها عُرف في هذه الآية المنذَر به[4].

سِرُّ التَّعبير باسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

كلُّ من نَسَبَ لله الـولـد يستحقُّ الإنذارَ الشَّديد

عبَّر البيانُ القرآنيّ بالاسم الموصول مع صلته ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ في قوله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ دون الاسم الظّاهر (القائلين)، لأمور:

الأوَّل: لقصدِ التَّعميم؛ لأنَّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من ألفاظ العُموم، فيشمل كُلَّ من قال: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾، سواء كانوا المُشركين الذين تتحدَّث عنهم الآيةُ كونهم جعلوا الملائكة بنات اللّه[5]، ويدخلون دخولًا أوليًّا، أو اليهود الذين قالوا: عزيرٌ ابن اللّه، أو النَّصارى الذين قالوا:

(1) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 468.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 425، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 12/ 421.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 8.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 251.
(5) ليس المُراد بهم النَّصارى الذين قالوا بأنَّ عيسى ابن الله تعالى، ولأنَّ القُرآن المكيَّ ما تعرض للرَّدِّ على أهل الكتاب مع تأهُّلِهم للدُّخول في العموم لاتِّحاد السَّبب، يُنظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 251.

عيسى ابن الله، أو كُلُّ من يدَّعي نفس الدَّعوى إلى يوم القيامة، فلم تحدِّد زمنًا أو مكانًا أو ناسًا بأعينهم.

الثّاني: للإيماءِ إلى وجهِ استحقاقِ التَّهديدِ بالعذاب الشَّديد، وأنَّ العُقوبة جاءتْ نتيجةَ قولهم الشَّنيع بأنَّ الله اتَّخذ ولدًا.

الثّالث: مُقابلةً للاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الذي أفادَ استحقاقَ المؤمنين للبُشرى والأجر الحَسَنِ بعملهم الصّالحات.

نكتة تخصيص ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ بالإنذار:

أعظمُ أنواع الكفر أنْ دَعَوْا للرَّحْمنِ ولدًا

خصَّ النّص القرآني افتراءَ الكافرين باتخاذ الله الولد بالذكر دون سائر الموبقات والآثام، فلم يقل: (وينذر الكافرين الذين قالوا..)، كما قال في شأن المؤمنين: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ﴾؛ استعظامًا لكفرهم[1]؛ لأنَّ هذا القول من أعظمِ أنواع الكُفْرِ وأشنعِه وأقبحِه، وكأنَّ كلَّ كفرٍ هو أخفُّ من هذا الجُرم[2]، قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ۝٩١﴾ [مريم: 90 - 91]، ولأنَّهم قد عُرِفوا بهذه المقالة بين أقوامهم، وبَيْنَ المُسلمين، فأراد اللهُ أنْ يذكرها لهم؛ تشنيعًا عليهم بهذه المقالة، وإيماءً إلى أنَّهم استحقّوا ما أُنذروا به لأجلها ولغيرها، فمضمون الصِّلة من موجبات ما أُنذروا به[3].

دلالة استعمال صيغة الماضي ﴿قَالُواْ﴾:

الإنْذارُ بالعَذابُ يتناول كُلَّ من قال (اتَّخَذَ الله ولَدًا) ولو مَرةً واحدة

آثر النَّص القرآني استعمال ﴿قَالُواْ﴾ بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ في صلة الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لأمور:

الأوَّل: لأنَّ المقامَ لا يحتاجُ إلى تَجَدُّدٍ واستمرار، وإنَّما يكفي أنْ

(1) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 3/ 272.
(2) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 468.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 251.

يقولها مرَّة واحدة دون توبةٍ حتَّى يستحقَّ هذا الإنذارَ الشَّديد، وهذا ما يتحقّق بصيغة الماضي.

الثّاني: للدَّلالة على تحقيقِ صدورِ تلك الكلمة القبيحة عنهم فيما سَبَقَ[1].

الثّالث: لأنَّ الماضي إذا وقعَ صلةً لموصول صلحَ للاستقبال، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [المائدة: 34][2].

ويتحصَّل من هذه الأمور أنَّ من قال هذه الكلمة في الماضي، أو سيقولها فيما بعد فإنَّ الإنذارَ والوعيد بالبأس الشَّديد يأتي عليه ويتناوله.

سِرُّ إيثار استعمال الفِعْلِ ﴿ٱتَّخَذَ﴾:

التَّعبير بفعل الاتخاذ أنسبُ لسياق الإنذار الشَّديد وحالِ المنذَرين

آثر البيانُ القرآني استعمالَ الفعل ﴿ٱتَّخَذَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾؛ في حين استعمل فعل (ولَدَ) في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢﴾ [الصّافات: 151 - 152]؛ لمُناسبةِ كُلِّ فعلٍ للسّياق الوارد فيه، ففي آية الكهف استعمل لفظ الاتخاذ؛ لاتّساعه لعدَّة معاني؛ إذ أصله يدلُّ على حَوْزِ الشَّيءِ وتحصيله[3]، والاتخاذ افتعالٌ من الأخذ، ومن معانيه الكسب، والصُّنع، والجَعْل، والعمل[4]، وهذا يُناسبُ السّياق الوارد في الإنذار الذي شملَ إنذار كلّ من نسَب اتخاذ الله للولد سواء بالولادة أو بالتَّبنّي أو بالجعل أو بالصُّنع أو بالحَوز والتَّحصيل، إمّا استعانةً، وإمّا اعتمادًا، وإمّا اعتدادًا، وإمّا امتدادًا، أي ليشملَ المُشركين الذين قالوا: الملائكة بنات الله، ويشمل اليهودَ القائلين عزيرٌ ابن الله، ويشملَ النَّصارى الذين هم فريقان: فريقٌ قال: عيسى ولد الله

(1) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 468.
(2) السَّمين الحلبي، الدُّرّ المصون: 3/ 452.
(3) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 2/ 57.
(4) الزَّبيدي، تاج العروس: (تخذ).

حقيقة، وفريقٌ قال: إنَّ الله اتخذه ولدًا تشريفًا له[1]، وهذا الشُّمول في الإنذار يتناسب مع كون الإنذار هو عِلَّةُ إنزال الكتاب الخاتم للعالمين.

في حين سياقُ آية الصّافات يَتناسب مع نفي الولد الحقيقيِّ عن الله سُبحانه؛ إذ إنَّ السّياق ورد في الرَّدِّ على فئةٍ مُعيَّنة من الذين نسبوا لله الولد، وهم المُشركون الذين نسبوا لله البنات، فقد ورد قبلها قول الحَقِّ سُبحانه: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الصّافات: 149].

دلالة إسنادهم الاتِّخاذ إلى ﴿ٱللَّهُ﴾:

إسنادُ الكافرين الاتخاذَ إلى الله في قوله سُبحانه: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ فِريةٌ على الله تعالى، وتدلُّ على عظيم جرأتهم على الله، وفظيعِ جرمهم؛ لأنَّ اتِّخاذ الولد نقصٌ في جانبِ واجب الوجود؛ إذ يترتَّب عليه أمران باطلان لا يليقان بذات الله: **الأوَّل:** مُشابهة الحوادث، وأنْ يكون لله سُبحانه نظيرٌ مثله، لأنَّ الولد مثيلُ أبيه، فكيف يكون لله تعالى شبيهٌ ومثيل، **والثّاني:** أنَّه ينبئ عن احتياجِ الله للولد لنُصرته، والله تعالى غنيٌّ حميد لا يحتاج لشيء، ويحتاج إليه كلُّ شيء سُبحانه، تعالى عمّا يقولون علوًّا كبيرًا[2].

إسنادُهم الاتّخاذ إلى (الله) دليلٌ على عظيمِ فريتهم وجرأتهم على الله

ولذلك خصَّهم القرآن بالإنذار الخاصِّ بعد الإنذارِ العامِّ ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾.

نكتة تنكير ﴿وَلَدًا﴾:

نكَّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿وَلَدًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾؛ لتفيد عموم النَّوعيَّة، فالمقصودُ مُطْلَقُ الولد سواء كان ذكرًا أو أنثى أو واحدًا أو جمعًا[3].

عُمومُ المُطْلَقِ شامِلٌ لِلذَّكَرِ والأُنْثَى

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 364.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4487.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 50.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإنذار والتَّخويف:

الإنـذارُ تخويفٌ مع إعْلام مَوضِع المخافة ليحذر منه، والتَّخويفُ الـحَـمـلُ على الذُّعر والفزع

يوجد تقاربٌ بين لَفْظَيْ (الإنذار، التَّخويف)، إذ يشتركان في معنى التَّحذير من أمرٍ ما والتَّحرُّز منه؛ إلّا أنَّ لِكُلٍّ منهما ما يُميِّزه، وإيضاحُ ذلك، أنَّ الإنذارَ أصلهُ يدلُّ على تَخْويفٍ أَوْ تَخَوُّفٍ، ومنه الإنْذارُ: الإبلاغُ، ولا يكون إلّا في التَّخويف والتَّحذير، ونَذِرَ بالشَّيْءِ وبالعَدوِّ: نذْرًا: عَلِمَهُ فحَذِرَه، وأَنذَره أَيضًا: حذَّره وخَوَّفَهُ في إبلاغه، ونَذِرْتُ بِهِم فاسْتَعَدَدْتُ لَهُم وحَذِرْتُ مِنْهُم والنذير: المنذر، وهو المحذِّر والمخوّف[1].

والتَّخويفُ أصلهُ يدلُّ على الذُّعْرِ والفَزَعِ، وخَوَّفَهُ، تَخْويفًا: أَخافَهُ، وخَوَّفْتُه: جَعَلْت فيه الخَوْفَ، وصَيَّرْتُه بحالٍ يَخافُه الناسُ[2]، والخَوْف: توقّع مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونة أو معلومة، ويُضادُّه الأمن، ويُستعمل ذلك في الأمورِ الدُّنيويَّة والأخرويَّة، والخوفُ من اللّه تعالى لا يُراد به ما يخطرُ بالبال من الرُّعب، وإنَّما يُراد به الكَفُّ عن المعاصي واختيار الطّاعات، والتَّخويفُ من اللّه: الحَثُّ على التَّحَرُّز[3].

إذن: يتميّزُ الإنْذار بمعنى الإعلام والتَّحذير والتَّخويف، في حين يتميَّز التَّخويف بمعنى الإخافة والحمل على الفزع والذُّعر.

فالإنذارُ هو تخويفٌ مع إعْلامِ مَوضِع المخافة ليحذرَ منه، والإنذارُ: إحْسانٌ من المُنْذِر، وكلما كانَت المخافة أَشدَّ كانَت النِّعْمَة بالإنذار أعظمَ، ولِهَذا كانَ النَّبيُّ ﷺ أعظمَ النّاس مِنَّةً بإنذاره لَهُم عِقاب اللّه تَعالَى[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (نذر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن عبَّاد، المحيط في اللُّغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (خوف).
(3) الرَّاغب، المُفردات، ص: 303.
(4) العسكري، الفروق اللُّغوية، ص: 242.

الولد والوليد:

الولدُ هو الابنُ صغيرًا أو كبيرًا ذكـرًا أو انثى جمعًا أو مفردًا، والوليدُ الصَّبيُ حـين يـولـد أو العبد

يتقاربُ لفظا (الولد، الوليد) إذ يشتركان في أصلهما من مادَّة (و ل د) وهو دَليلُ النَّجْلِ والنَّسْلِ[1]، إلّا أنَّ هُناك من جعلَ بينهما فروقًا، ومنها: الولَدُ يُطلق على الصَّغير والكبير، في حين الوليدُ: يُقال لمن قَرُبَ عهدُه بالولادة، فهو المَوْلودُ حينَ يولَدُ، وهو الطِّفْل.

والولَدُ يُطلق على الابْن والابْنَة؛ أي الذَّكر والأنثى، في حين الوليدُ: هو الصَّبيُّ حينَ يولَدُ، والأُنثى وليدَةٌ، وقالَ بَعْضُهُم: بَلْ هو لِلذَّكَرِ دونَ الأُنثى.

والولَدُ يكون واحِدًا وجمعًا، وقَدْ جَمَعوا الولَد فقالوا: أَولادٌ وولْدانٌ، في حين أنَّ الوليد يكون واحدًا، والجمع وِلْدانٌ ووِلْدَةٌ.

والوليدُ يُطلق أيضًا على العَبْد، وقَدْ تُطْلَقُ الوليدةُ عَلَى الجارِيَةِ والأَمَة وإِن كانَتْ كَبيرَةً، وقَيَّدَه بعضُهم بِمن يولَدُ في الرِّقّ[2]، في حين أنّ الولد لا يُطلق على العبد ولا على الجارية.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ولد).

(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (ولد)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 5/ 278 - 279.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 29 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-26-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 29 : المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-26-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6484549 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»